الاستدلالُ القُرْآنِيُّ في كِتَابِ تَحْصِيْلِ النَّجَاةِ في أُصُوْلِ الدِّيْنِ لفَخْرِ المُحَقِّقِينَ (ت ٧٧١هـ)

م.م. حسين جعفر عبيد

وزارة التربية/المديريَّة العامَّة للتربيَّة في بابل

The Qur'anic Reasoning in the Book of Tahseel Al-Najat fi Usul Al-Din by Fakhr Al-Muhaqiqin (D. 771 A.H)

Asst. Lect Hussein Jaafar Obaid

Ministry of Education/General Directorate of Education/Babylon

ملخَّص البحث

ستتناوش في هاته المباحثة الاستدلال القرآنيّ عند عَلمٍ من أعلام الإماميَّة عامَّة، ومن أعلامِ مدينة الحِلَّة خاصَّة، هو الشيخ فخر المحقِّقين محمَّد بن الحسن بن يوسف ابن المُطَّهرِ الحِلِّيِّ.

لا جرَمَ أنَّ فخر المحقِّقين قد أفاد من النصِّ القرآنيّ أيَّما فائدة في استدلالاته عن أصول الدين، إذ القرآن الكريم كتاب الله عزَّ وجلَّ، وقد خالط لحمه ودمه، إذ ندَّ في استدلالاته في شرحه وتبيانه لأصول الدين في ضوء كتابه (تَحْصِيْلُ النَّجَاةِ فِيْ أُصُوْلِ الدِّيْنِ)، وقد تجلَّى ذلك من نحو: التوحيد، والعدل، والنبوَّة، والإمامة، والمعاد.

وبدا لنا في ضوء ما وقفنا عليه من شرحه لأصول الدين، أنَّ البحث يجدر به أنْ يكون في تمهيدٍ بعنوان (فخر المُحقِّقين) مؤشِّرات تعريفيَّة، والاستدلال لغةً واصطلاحًا، وثلاثة مباحث، الأوَّل: أنساق الاستدلال القرآنيّ، في ظلِّ الاستدلال بجزء من الآية، والثاني: أنساق الاستدلال القرآنيّ، في ضوء الاستدلال بآية كاملة، والثالث وُسِمَ بـ: (أنساق الاستدلال القرآنيّ)، في ظلِّ مقطع قرآنيّ (مجموعة من الآيات)، ثمَّ خاتمة بما توصَّل إليه البحث من نتائج، ثمَّ قائمة بأسماء مصادر البحث ومراجعه التي اعتمدناها في البحث.

والحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على محمَّد وآله الطيِّبين الطاهرين

Abstract

In this discussion, we will discuss the Qur'anic inference according to one of the prominent scholars of the Imamiyah in general, and scholars of Hilla city in particular, which is Sheikh Fakhr Al-Muhaqiqin Muhammad ibn Al-Hasan ibn Yusuf ibn Al-Mutahhar Al-Hilli.

There is no doubt that Fakhr Al-Muhaqiqin has benefited greatly from the Qur'anic text in its inferences about the fundamentals of religion, since the Holy Qur'an is the book of Allah Almighty, and it has mixed with his flesh and blood, as it is related in his inferences in his explanation and clarification of the fundamentals of religion in the light of his book (Tahseel Al-Najat fi Usul Al-Din). This was manifested in terms of: monotheism, justice, prophecy, leadership, and resurrection.

And it seemed to us, in the light of what we came across from his explanation of the fundamentals of religion, that the research should be in a preface entitled (Fakhr Al-Muhaqiqin) defining indicators, inference linguistically and idiomatically,

and three topics, the first: the patterns of Quranic inference, in light of the inference of a part of the verse, and the second: the patterns of Qur'anic inference, in the light of inference with a complete verse, and the third: entitled "the patterns of Qur'anic inference", in light of a Qur'anic passage (a group of verses). ended with a conclusion and results of the research, then a list of references that we adopted in the research.

Praise be to Allah, Lord of the worlds, and prayers and peace be upon Muhammad and his good and pure family.

المقدِّمة

الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين محمَّدٍ وآله الطيِّبين الطاهرين.

أمَّا بعدُ..

فإنَّ القرآن الكريم يمثِّل دائرةً استدلاليَّةً عظيمةً؛ لِمَا له من صفات الخلود، والتَّكامل، والإعجاز، والتَّجَدُّد، فهو كتاب الله الخالد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو تبيانٌ لكُلِّ البشر. زِدْ على أنَّ علم الكلام يُعَدُّ من أهمِّ العلوم الإسلاميَّة وأشرفها؛ إذ يبحث في العقائد الإسلاميَّة في ظلِّ البرهان والدليل العقليّ، فضلًا عن أنَّه الوسيلة الفعَّالة للدفاع عن العقائد الإسلاميَّة الحقَّة، ورَدِّ شُبُهات المعاندين ونقضها.

وسنتناول في هاته المباحثة الاستدلال القرآنيّ عند عَلَمٍ من علماء المذهب عامَّة، ومن أعلام مدينة الحِلَّةِ خاصَّة، في ظلِّ ما جاء في كتابه (تَحْصِيْلُ النَّجَاةِ فِي أُصُولِ الدِّينِ). وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ الشيخ فخر المحقِّقين قَدْ أَفادَ من القُرآن الكريم أيَّما فائدة، إذ هو كتاب الله سبحانه وتعالى، وقد خالط لحمَهُ ودمَهُ، فظهر ذلك في جليًّا، وهاته الاستدلالات القرآنيَّة على أصول الدِّين تمثِّلُ منظومةً دينيَّةً، لا نبالغُ إذا قلنا: إنَّها دينيَّةٌ خالصةٌ، إذْ حازَ القربُ الإلهيّ فيها حَيِّزًا وَسِيعًا، إذْ ندَّ ذلكَ فِي استدلالاته، وقد تجلَّى ذلكَ مِنْ نحو: التَّوحيد، والعَدْل، والنبوَّة، والإمامة، والمَعاد (الوعد والعيد)، وقد كان

للمدرسة الحِلِّيَّة أثرٌ بارزٌ في إنضاج علم الكلام وتطويره ونشره، ويتجلَّى ذلك في ضوء اهتمام علماء هاته المدينة الأجلَّاء به اهتمامًا كبيرًا[1].

وَبَدا لَنا فِي ضَوْءِ ما وقفنا عليهِ من استدلالاته القرآنيَّة، أنَّ البَحْثَ يجدرُ بهِ أنْ يكونَ فِي تمهيدٍ بعنوان: (الشيخ فخر المُحقِّقين) مؤشِّراتٌ تعريفيَّةٌ، والاستدلال لغةً واصطلاحًا، وثلاثة مباحث، الأوَّل بعنوان: (أَنساقُ الاسْتِدْلَال القُرْآنيّ) في ظلِّ الاستدلالِ بجزءٍ مِن الآيةِ،، والثاني حملَ عنوان: (أَنساقُ الاسْتِدْلَال القُرْآني) في ظلِّ الاستدلالِ بآيةٍ كاملةٍ، فيما وُسِمَ الثالث بـ: (أَنساقُ الاسْتِدْلَال القُرْآني) في ظلِّ الاستدلالِ بمَقطع قرآنيّ (مجموعة من الآيات)، ثمَّ خاتمة بما توصَّل إليه البحث من نتائج، وقائمة بأسماء مصادر البحث ومراجعه.

والحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على محمَّدٍ وآله الطاهرين

(١) ينظر: تحصيل النجاة في أصول الدين: ٩.

التمهيد

أولًا: فخر المحقِّقين مؤشِّرات تعريفيَّة

١. حياته:

في ظلِّ القراءة الباصرة للمصادر التي ذكرت حياته، يرشح أنَّ اسمه محمَّد، وكنيته أبو طالبٍ، زِدْ على أنَّه اشتهر بـ(فخر المحقِّقين)، ويُعرَف أيضًا بـ(فخر الدين، وفخر الإسلام)، وهو ابن العلَّامة جمال الدين الحسن بن يوسف بن عليّ ابن المُطهَّر الحِلِّيّ، وُلِدَ في منتصف ليلة الاثنين ٢٠ جُمادَى الأُولى سنة (٦٢٨هـ) في الحِلَّة، في العراق، وسافر مع والده في أيَّام شبابه إلى إيران، ثمَّ عاد إلى الحِلَّة[١]. وبعد وفاة والده اضطرَّ بسبب العداوات ولأحقاد للهجرة عن وطنه، والسكن في نواحي أذربيجان مدَّة[٢].

تُوفِّيَ في ليلة الجمعة الخامس عشر من شهر جمادى الآخرة سنة (٧٧١هـ) عن عمرٍ يناهز ٨٩ سنة[٣]. ويتبيَّنُ أنَّ قبر فخر المحقِّقين نُقِل كقبر أبيه من مدفنه الأوَّل في الحِلَّة إلى النجف الأشرف[٤].

(١) ينظر: عليّ دواني فخر الدين محمَّد (ت ٢٠٠٧م)، مجلَّة در سهايي از مكتب اسلام، رقم: ١٠، إيران، ١٣٤١ش: ٣٤، وتحصيل النجاة في أصول الدين: ١٤.

(٢) ينظر: كتاب الألفين: ١/ ٩٨، وتحصيل النجاة في أصول الدين: ١٤.

(٣) ينظر: تحصيل النجاة في أصول الدين: ١٤.

(٤) ينظر: تنقيح المقال في علم الرجال: ٣/ ١٠٦، والفوائد الرضويَّة: ٣/ ٧٧٣، ولوامع صاحب قرآنيّ: ٢/ ٥٣١.

٢. دراسته ومقامه العلميّ:

في ظلِّ القراءة الفاحصة لأطوار حياة فخر المحقِّقين، يرشح أنَّه أقبل في صغره على تعلُّم العلوم الإسلاميَّة على أبيه، زِدْ على أنَّه اكتسب هاته العلوم عنده، ولم يكنْ له أستاذ غيره[١]، فضلًا عن ذلك كان لديه من النبوغ والمؤهِّلات ما مكَّنه من الوصول إلى الاجتهاد في سنٍّ مبكِّرَةٍ، وتأثَّر فخر المحقِّقين بفكر والده أيّما تأثُّر، وممَّا لاشكَّ فيه كانت له آراؤه الخاصَّة، حتَّى إنَّه كان سببًا في تغيير رأي والده في بعض المسائل[٢].

٣. كتاب تحصيل النجاة في أصول الدين:

يُعَدُّ كتاب (تحصيل النجاة في أصول الدين) واحدًا من مؤلَّفات فخر المحقِّقين في علم الكلام[٣]، كتبه لتلميذه السيِّد ناصر الدِّين حمزة بن حمزة العلويّ، وأنَّه أُلِّف بين سنة (٧٢٦هـ) وسنة (٧٣٦هـ)، ويُستكشَفُ أنَّ المؤلِّف قصَدَ تأليف كتاب مشتمل على مباحث في أصول الدِّين، ويحوي الكتاب على مقدِّمة من فصلَين، وعلى خمسة أصول. خصَّص فصلًا المقدِّمة بالمباحث المتعلِّقة بالنظر، وتقسيم الوجود إلى الممكن والواجب، وحدوث العالَم، وإطال الدَّوْرِ والتَّسلسل، ويرتبط الأصل الأوَّل بمباحث التوحيد، ويختصُّ الفصل الأصل الثاني بمباحث العدل، والأصل الثالث بمباحث النبوَّة، والأصل الرابع بالإمامة، والأصل الخامس بمباحث الوعد والوعيد، ونلمح أنَّ فخر المحقِّقين خصَّ الإمامة من بين هاته الأصول الخمسة بالحجم الأكبر من الكتاب المذكور آنفًا؛ أي الثُّلثين تقريبًا، زيادة على ذلك كان اعتماده الرئيس في بحث الإمامة على إثبات إمامة الأئمَّة عليهم السلام في ظلِّ الاستشهاد بكراماتهم في ضوء المصادر الروائيَّة التي

(١) ينظر: عليّ دواني فخر الدين محمَّد: ٣٤، وتحصيل النجاة في أصول الدين: ١٥.
(٢) ينظر: روضات الجنَّات: ٦/ ٣١٦، وتحصيل النجاة في أصول الدين: ١٦.
(٣) ينظر: الذريعة إلى تصانيف الشيعة: ٣/ ٣٩٨، وريحانة الأدب: ٤/ ٣٠٩.

تنطوي على كراماتهم عليهم السلام؛ إذ كانت المصدر الأساس المعتمَد لديه في كتابه[١].

ثانيًا: الاستدلال

١. لغةً:

في ظلِّ القراءة الفاحصة لجذر (دَلَّ)، نبصُر فيه أصلان، أحدهما يدلُّ على إبانةِ الشَّيء بإمارة تتعلَّمها، والآخر اضطرابٌ في الشَّيء، فالأوَّل قولنا: دَلَلْتُ فلانًا على الطَّريقِ، والدَّليلُ: الإمارَةُ في الشيء، وهو بين الدَّلالة والدِّلالة[٢].

والاستدلال: مصدر الاستِفْعال بزيادة ثلاثة أحرف (الهمزة والسين والتاء) مِنْ طَلَب الدليل والطَّريق المُرْشِد إلى المطلوب، وتدلُّ هاته الصفة على التكلُّف وكثرة الطَّلب؛ أي إنَّ المستَدِلَّ يتكلَّف ويتوغَّل من أجل إحراز الدليل الذي يراه مطابقًا ومنسجمًا مع المسألة المبحوث عنها.

ومن أجل الوقوف على (الاستدلال القرآنيّ) بوصفه مركَّبًا وصفيًّا، بنا حاجةٌ أنْ نقف على معنى القرآن في اللغة، قال الراغب الأصفهانيّ: «والقرآن في الأصل مصدر، نحو: كُفران ورَجَحان، قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧-١٨]، قال ابن عبَّاس: إذا جمعناه وأثبتناه في صدرك فاعمل به، وقد خُصَّ بالكتاب المنزَّل على محمَّد صلى الله عليه وآله، فصار له كالعلم، كما أنَّ التَّوراة لـمَّا أُنْزِلَ على موسى، والإنجيل على عيسى صلَّى الله عليهما وسلَّم، قال بعض العلماء: تسمية هذا الكتاب قُرْآناً من بين كتب الله؛ لكونه جامعًا لثمرة كتبه، بل لجمعه ثمرة جميع العلوم، كما أشار تعالى إليه بقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يوسف: ١١١]، وقوله: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ

(١) ينظر: تحصيل النجاة في أصول الدين: ٢٢-٢٣.

(٢) ينظر: مقاييس اللغة: ٢/ ٢٥٩، مادة (دلَّ).

شَيْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩]، ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ [الزمر: ٢٨]، ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ﴾ [الإسراء: ١٠٦]، ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ﴾ [الروم: ٥٨]، ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ [الإسراء: ٧٨] أي: قراءته، ﴿لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ [الواقعة: ٧٧] وأقرأت فلانًا كذا، قال: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ [الأعلى: ٦]، وتَقَرَّأْتُ: تفهَّمت، وقَارَأْتُهُ: دارسته»[١].

ويتجلَّى لنا في نصِّ الراغب الأصفهانيّ أنَّه أشار إلى مجموعة من الدلالات التي لها علاقة وثقى بالقرآن، منها: الجَمْعُ، والقِراءةُ، والمُدارسةُ.

٢. اصطلاحًا:

الاستدلال: تقرير الدليل لإثبات المدلول، وهو طلب الدليل، ويُطلق في العرف على إقامة الدليل مطلقًا من نصٍّ أو إجماعٍ أو غيرهما، وعلى نوعٍ خاصٍّ من الدليل، وقيل: هو في عُرف أهل العلم تقرير الدليل لإثبات المدلول، سَواء كان ذلك من الأثر إلى المؤثِّر أو بالعكس، أو من أحد الأثَرين إلى الآخر[٢]. وطلب الدليل يُقصَد به الوقوف على حقيقة الدليل ودلالته على الحكم، سواء ذكر الدليل بعده وأُقيم علامةً على الحكم، أو لا.

والقرآن الكريم هو كلام الله، وأنَّه غير كلام البشر، هاته الحقيقة الراسخة جعلت من تعريفات العلماء للقرآن الكريم في الاصطلاح ذات منطلَقٍ واحد، قال الشريف الجرجانيّ (ت ٨١٦هـ): «هو المُنْزَلُ على الرسول المكتوب في المصاحف المنقول عنه نقلًا متواترًا بلا شبهةٍ، والقرآن، عند أهل الحقِّ، هو العلم اللدنِّي الإجماليّ الجامع للحقائق كلِّها»[٣]، قال عبد العظيم الزَّرقانيّ: «بأنَّه الكلام المُعْجِزُ المنزَّل على النبيّ ﷺ المكتوب في

(١) مفردات ألفاظ القرآن: ١/ ٦٦٨-٦٦٩.
(٢) ينظر: التعريفات: ١٧، والكليَّات، الكفويّ: ١٤٤.
(٣) الكليَّات: ١٧٤.

المصاحفِ، المنقول بالتواترِ، مُتَعَبَّدٌ بتلاوته»[١].

في ظلِّ ما تقدَّم، يمكننا القول إنَّ (الاستدلال القرآنيّ) هو الدليل والحاضر والمِثال في تقدير الحقيقة المُراد إثباتها واستجلاؤها، ومِن النصوص فإنَّ الاستدلال القرآنيّ انماز عن غيره من الاستدلالات؛ لأنَّ مُنْتَج هذه النصوص هو القرآن الكريم، وهو سيِّد الكتب السماويَّة وسيِّد النصوص، وهو أُنْزِلَ بأرقى لغةٍ، وأعذب أسلوبٍ، ممَّا يجعل الاستدلال بكلمة منه جواز المرور لمثيلتها من كلام العرب، والاستدلال منه رائدًا لغيره من تراكيب العرب.

وقد بان الأثر الحقيقيّ المُبكِّر للاستدلال القرآنيّ في الكلام العربيّ على لسان النبيّ الأكرم محمَّد صلى الله عليه وآله، والإمام عليّ عليه السلام، والأئمَّة المعصومين عليهم السلام، ثمَّ تجلَّى هذا الأثر المُقدَّس في كلام مَن جاء بعدهم من الأولياء والعلماء والباحثين والدَّارسين.

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن: ٩/ ٢٤٥.

المبحث الأوَّل

أنساق الاستدلال بجزء من الآية القرآنيَّة

أوَّل ما يلقانا من استدلالات حجاجيَّة قرآنيَّة عند فخر المحقِّقين: الاستدلال بجزء من الآية القرآنيَّة، إذ لا يخفى أنَّ هذا الاقتطاع الحجاجيّ القرآنيّ أمارة عن حفظ فخر المحقِّقين تارةً، ودقَّته في اقتناص الشاهد مهما قصر في قوَّة استدلاله، وإصابته المعنى المراد تبيانه.

في هذا المبحث سنتحدَّث عن الاستشهاد بجزء من الآية في كتاب تحصيل النجاة في أصول الدين، على النحو الآتي:

١. التوحيد: الله تعالى غيرُ مرئيٍّ

استشهد الشيخ فخر المحقِّقين بجزء الآية المباركة: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام/ من الآية: ١٠٣] في معرض شرحه أنَّ تعالى غير مرئيٍّ، ولا تدركه الأبصار، قال: «كُلُّ ما يُدْرَكُ بآلةٍ جسمانيَّة فهو في جهةٍ وقابلٌ الإشارةَ الحسيَّةَ، والله تعالى ليس في جهةٍ ولا يقابِلُ الإشارةَ الحسيَّةَ، فلا يُدرَكُ تعالى بآلةٍ جسمانيَّةٍ، فلا يمكنُ أنْ يكون مرئيًّا بآلةِ البصرِ؛ لأنَّ ما يُرَى بها لا يُعقَل إلَّا مع المقابلة أو حكمها، وهو لا يصحُّ إلَّا في شيئَين حاصلَين في الجهة»[1]. البصر: هو الجوهر اللطيف الذي ركَّبَه الله في حاسَّة النظر، به تُدْرَكُ المُبْصَرات، فالأبصارُ لا تتعلَّق به ولا تُدْركه؛ لأنَّه متعالٍ أنْ يكون مبصَرًا في

(١) تحصيل النجاة في أصول الدّين: ٦٢-٦٣.

ذاته؛ لأنَّ الأبصار إنَّما تتعلّق بما كان في جهةٍ أصلًا أو تابعًا، كالأجسام والهيئات[١]. ثمَّ بيَّن فخر المحقِّقين أنَّ كلَّ ما ورد ممَّا ظاهره الرؤية أُريد به الكشف العقليّ، ولقوله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف/ من الآية: ١٤٣] و(لن) لنفي الأبد[٢].

٢. العدل:

استدلَّ الشيخ فخر المحقِّقين على قُبْح تعذيب العبد على فعْلٍ خلقه الله تعالى فيه، بقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [الإسراء/ من الآية ٩٤]، وقوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [المُلْك/ من الآية: ٣]، إذ الظلم والكذب والقبائح كلُّها ليست بحسنةٍ[٣]، وفي استدلاله إشارة مُعجِبَةٍ تتمثَّل بتوهُّم المشركين واستبعادهم أنْ يكون الرسول بشرًا ولا يكون مَلِكًا، زِدْ على أنَّ منشأ هذا الوهم عدم إدراك الناس لعدل الله سبحانه وتعالى، ولقيمة بشريَّتهم وكرامتهم على الله تعالى[٤]. ونبصُرُ أنَّ المشركين استبعدوا أنْ يبعث الله بشرًا؛ لضيق نظرهم وتفكيرهم، وظنُّوا أنَّ الرسول المبعوث يجب أنْ يكون مَلَكًا. وأيُّ مانعٍ أقوى من أنْ يخلق الله تعالى فيهم ضدَّ الايمان وكفره؟ ثُمَّ يسألهم ما منعكم عن فعله، فضلًا عن أنَّ العدل يقتضي أنْ لا يُسأل الأعمى ما منعك عن الكتابة، مع العلم بعجزه[٥].

٣. النبوَّة: النبي محمّد صلى الله عليه وآله أفضل من الملائكة

تناوش الشيخ فخر المحقِّقين قوله تعالى: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر/ من الآية:

(١) ينظر: الكشّاف: ٢/ ٥٤.
(٢) ينظر:. تحصيل النجاة في أصول الدِّين: ٦٣.
(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٧٣.
(٤) ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن: ٦/ ٢٩٤، وفي ظلال القرآن: ٤/ ٢٢٥١.
(٥) ينظر: تحصيل النجاة في أصول الدِّين: ٧٤.

٢٩]، ليستدلَّ على أنَّ النبيَّ الأكرم محمَّدًا صلى الله عليه وآله أفضل من الملائكة؛ إذ هو سيِّدهم وخاتم الأنبياء، قال: «والفاضلُ لا يحسن أَمرُهُ بالسجود للمفضول، ومحمَّد عليه السلام أشرف من آدم»[١]؛ فهو صلى الله عليه وآله الشاهد على الرُّسل وعلى النَّاس جميعًا يوم القيامة، زدْ على أنَّه أوَّلُ مَنْ لبَّى النداء الإلهيّ في عالم الذَّرِّ عندما سأل الله سبحانه وتعالى الناس جميعًا: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف/ من الآية: ١٧٢]، فأجاب النبيّ الأكرم بـ(بلى) قبل الخلق كلِّهم.

٤. الإمامة:

أ. إمامة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام:

استند فخر المحقِّقين إلى قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة/ من الآية: ٣] وعدَّ هاته الآية المباركة واحدًا من الأدلة في إثبات إمامة الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، قال: «وإكمال الدِّين إنَّما يكون بأنْ يُنَصَّبَ إمامًا معصومًا؛ حتَّى يحصل العلم بقوله لعصمته، ولا يعتريه شكٌّ، وغير عليٍّ عليه السلام لم يكنْ معصومًا إجماعًا؛ ولأنَّها نزلت في عليٍّ عليه السلام في غدير خُمْ»[٢]. يستكشفُ في ظلِّ ما تقدَّم أنَّ أمر الإمامة من تمام الدين، ولم يمضِ النبيّ محمَّد صلى الله عليه وآله حتَّى بيَّنَ لأمَّتِه تمام دينهم، وأوضح لهم سبيلهم، وتركهم على قصد الحقِّ، وأقام لهم الإمام عليًّا عليه السلام عَلَمًا وإمامًا، وما ترك شيئًا تحتاج إليه الأمَّة إلَّا بيَّنهُ[٣]. ونلمَحُ أنَّ الله تعالى استعمل الفعلَين (أكملتُ، وأتممتُ) المتعدِّيَين بهمزة التَّعدية، وفيهما دلالة على تمام الشيء الذي يُجزَّأ منه أجزاؤه وكماله على أحسن وجه[٤]؛ أي إنَّ أمر الإمامة تكفَّل الله تعالى بكماله وتمامه بتنصيب

(١) تحصيل النجاة في أصول الدِّين: ٩١.
(٢) المصدر نفسه: ١٠٣.
(٣) ينظر: البرهان في تفسير القرآن، هاشم البحرانيّ: ١/ ٣٢٣
(٤) ينظر: العين: ٥/ ٣٧٨.

الإمام عليّ عليه السلام، وزيادة على ذلك نلحظ أنَّ هَذين الفعلَين أُسْنِدا إلى تاء المتكلِّم العظيم، ويتجلَّى في ظلِّ ذلك أنَّ الإمامة من مختصَّاته ولوازمه ولواحقه، وهو مَنْ أمر النبيّ صلى الله عليه وآله بالإفصاح عنها، وجعلها أصلًا من أصول الدين، زيادةً على النبوَّة والعدل والمعاد، ولاسيَّما إذا لحظنا أنَّ التحذير الصادر عن الله تعالى للنبيّ الأكرم أنَّك إذا لم تفعل هذا الأمر فلم تكنْ قد بلَّغت رسالة السماء بكلِّ تفاصيلها، وقد فعل النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله كما أمره الله سبحانه وتعالى.

ب. عصمة الإمام:

تتجلَّى عصمة في ظلِّ ما أشار إليه فخر المحقِّقين في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء/ من الآية: ٥٩]، قال: «إنَّ طاعته كطاعة الله ورسوله، وكما أنَّ طاعة الله عامَّة في جميع الأشياء، فكذا طاعة الرسول، وكذا الإمام، وكما معلوم أنَّ طاعة الله صواب دائمًا في جميع الأحوال، فكذا طاعة الرسول، وطاعة الإمام؛ لتحقِّق المساواة، وإنَّما يتحقَّق كونها صوابًا دائمًا في جميع الأحوال والأوقات إذا كان معصومًا»[1]. فالإمام كالنبيِّ يجب أنْ يكون معصومًا من جميع الرذائل والفواحش، ما ظهر وما بطن، زِدْ على أنَّه يجب أنْ يكون معصومًا من السَّهو والخطأ والنِّسيان؛ لأنَّ الإمام حافظٌ للشريعة والقائم عليها، إذ لو يكن معصومًا عن الخطأ، كان بتقدير إقدامه على الخطأ، يكون قد أمر الله بمتابعته، وهو منهيٌّ عنه، وهذا يفضي إلى اجتماع الأمر والنهي في الفعل الواحد، وهو محال على الله تعالى[2]. وتتجلَّى عظمة الأمر في ظلِّ الاستعمال القرآنيّ لفعل الأمر (أطيعوا)، وفيه إنجازيَّة قويَّة متأتِّية من شِدَّته وحضِّه على القيام بالفعل. زِدْ على أنَّه صادر عن متكلِّم عظيم له مُلك السماوات والأرض.

(١) تحصيل النجاة في أصول الدين: ٩٧

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب: ١٠/ ١١٣، وعقائد الإماميَّة: ٦٧

٥. الوعد والوعيد:

أ. فناء العالم:

استحضر فخر المحقِّقين قوله تعالى: ﴿ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم/ من الآية: ٤٨]، زيادة على قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء/ من الآية: ١٠٤]، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن/ من الآية: ٢٦]، وجعل هاته الآيات المباركات ذات حمولة حجاجيَّة واستدلال على جواز فناء العالم، قال: «يجوز الفناء على العالم... ولأنَّ العالَمَ ممكنٌ، والمؤثِّر فيه قادرٌ لما تقدَّم، وأثر القادر لا يجبُ دوامه. وخراب العالَمَ بتفريق أجزاء العالم، فإذا كان يوم القيامة ألَّفها كما كانت»[(١)].

وذكر الرازي (ت ٦٠٦هـ) رأيًا باصرًا ذكر فيه أنَّ المراد من تبديل الأرض والسماوات، أنَّه تعالى يجعل الأرضَ جهنَّم، ويجعل السماواتِ الجنَّة، واستدلَّ على ذلك بقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المُطفِّفين: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ [المُطفِّفين: ٧][(٢)].

ب. الجنَّة والنَّار مخلوقتان:

لا ريب أنَّ أصحاب القلوب الخاشعة لا يتردَّدون في قبول الأدلَّة العقليَّة والنقليَّة الدَّالَّة على قدرة الله الوسيعة وصدق وعده ووعيده، وأشار فخر المحقِّقين إلى أنَّ والده وأبا الحسين البصريّ وأبا الحسن الأشعريّ، ذكروا أنَّ الجنَّة والنَّار مخلوقتان الآن، وتابعهم في ذلك مستندين إلى قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة/ من الآية: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران/ من الآية: ١٣٣]، وقوله تعالى:

(١) تحصيل النجاة في أصول الدين: ١٨٩.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب: ١٩/ ١١٢.

﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ [غافر/ من الآية: ٤٦]، وأنَّ الإعداد تصريحٌ في الثبوت، زيادة على قصَّة آدم عليه السلام المُشار إليها في قوله تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنَ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [البقرة: من الآية ٣٥، والأعراف: من الآية ١٩][1]، إذ كان في الجنَّة[2].

(١) ينظر: تحصيل النجاة في أصول الدين: ١٩٤.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ١٩٤- ١٩٥.

المبحث الثاني

أنساق الاستدلال بآية قرآنية كاملة

سنتحدث في هذا المبحث عن استدلال فخر المحقِّقين بآية قرآنيَّة مباركة كاملة على أصول الدين، كما يأتي:

١. الإمامة:

أ. عصمة الإمام:

استند فخر المحقِّقين إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]؛ ليستدلَّ على عصمة الإمام، ولاسيَّما أنَّ الله سبحانه وتعالى أضاف لفظ (عباد) إلى ياء العظمة العائدة على الخالقة العظيم، بمعنى: أنَّهم عائدون لي ويخصُّوني ويلتزمون أوامري ونواهيي وحدي لا شريك لي، قال فخر المحقِّقين: «ولأنَّ الإمام قائمٌ مقامَ النبيّ وخليفته، ويُراد منه ما يُراد من النبيِّ سوى الوحي، فيلزم العصمة، وإلَّا لم يتحقَّق القائم مقامه، وغير ذلك من الأقسام بيَّن البطلان»[١]. يُستكشَف أنَّ الإمام قائم بدور النبيّ، ومن هاته الأدوار حفظ الشريعة؛ إذ إنَّ غير المعصوم لا يقوم ولا يضمن لنا حفظ الشريعة ولا تطبيقها بشكلٍ كاملٍ، ولا يهدي الأمَّة إلى مقاصدها الواقعيَّة[٢].

(١) تحصيل النجاة في أصول الدين: ٩٨.

(٢) ينظر: عقيدتنا، النبوَّة، والإمامة، والعصمة: ١٤٠.

ب. إمامة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالبٍ عليه السلام:

ذكر فخر المحقِّقين أنّ الإمام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله هو عليّ بن أبي طالبٍ عليه السلام، إذ جعل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥] واحدًا من أدلَّته على إمامته عليه السلام، فبيَّن أنَّ هاته الآية المباركة نزلت في الإمام عليّ عليه السلام بالإجماع، وأشار الراغب الأصفهانيّ إلى أنَّ معنى الولاية تَوَلِّي الأمر، ويُقال للمؤمن: هو وَلِيُّ الله عز وجل [١]، فالولي في الآية المباركة المذكورة آنفًا تدلُّ على الحكم والسلطة بمعناها الدقيق؛ أي الأولى بالتصرُّف من غيره، زِدْ على أنَّ كلمة (إنَّما) الواردة في الآية المباركة تدلُّ على الحصر، أي إنَّ الله تعالى يريد حصر الولاية على النَّاس بهؤلاء الثلاثة، الله تعالى، ورسوله، وأمير المؤمنين، ونفيها عن مَنْ سواهم[٢]، وبَصَر فخر المحقِّقين أنَّ المعطوف والمعطوف عليه متشاركان في الحكم المذكور آنفًا، كما لو قال: العالِمُ زيدٌ وعمرو، فتكون الولاية الثابتة للإمام عليّ عليه السلام على الخلق كالولاية الثابتة لرسول الله صلى الله عليه وآله، والولاية الثابتة لرسول الله صلى الله عليه وآله كالولاية الثابتة لله تعالى، لكنَّ ولاية الله تعالى تعني الأولى بالتصرُّف، ولا يعني بالإمام إلَّا ذلك[٣]. ولَمَح الشيخ الطبرسيّ (ت ٥٤٨هـ) رأيًا فاحصًا أشار فيه إلى أنَّ النُّكْتة في إطلاق الجمع على أمير المؤمنين، تفخيمه وتعظيمه، وذلك أنَّ أهل اللغة يُعبِّرون بلفظ الجمع عن الواحد على سبيل التعظيم، وذلك أشهر في كلامهم من أنْ يحتاج إلى الاستدلال عليه[٤].

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن: ٨٨٥.
(٢) ينظر: العقائد والمعارف: ٢٧٠.
(٣) ينظر: تحصيل النجاة في أصول الدين: ١٠٢.
(٤) ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن: ٣-٤/ ٢١١.

ج. إمامة الإمام جعفر الصادق عليه السلام:

تتجلَّى إمامة الإمام جعفر بن محمَّد الصادق عليه السلام في ظلِّ كلام فخر المحقِّقين عندما استدلَّ بقوله تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القَصَص:٥] على ذلك، إذ نظر إليه أبوه الإمام محمَّد الباقر عليه السلام يومًا، وذكر لأبي الصباح الكناني أنَّه من الذين ذكرهم الله تعالى في قوله تعالى المذكور آنفًا[1]، وهاته منَّةُ الله تعالى جُعِلَتْ إرادةَ وقوعها كأنَّها مقارنة لاستضعافهم أَئِمَّةً مقدَّمين في الدِّين والدُّنيا، يطأ الناس أعقابهم[2]. ولا ريبَ أنَّ هذا الاصطفاء والاختيار للمستضعفين بجعلهم أئِمَّة تأتَّى من النِّعم التي حباهم الله تعالى بها، ويتجلَّى هذا الإنعام والإفضال بالفعل الكلاميّ المباشر (نريد، نجعل)؛ إذ تتحقَّق إنجازيَّته وتأثيريَّته في ظلِّ إسناد الفعلَين إلى نون العَظَمة التي هي من مختصَّات الله سبحانه وتعالى ولوازمه ولواحقه، فضلًا عن أنَّ هؤلاء العباد أطاعوا الله تعالى وأعطوه كلَّ ما تفضَّل به الباري سبحانه عليهم، فمنَّ عليهم وجعلهم الأعلَون في الدنيا والآخرة.

د. إمامة الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام:

الإمام بعد جعفر بن محمَّد الصادق عليه السلام ولده الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام، وذكر فخر المحقِّقين عددًا من الأدلَّة على إمامته، منها قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه: ٨٢]، إذ استضاء بالآية المباركة وعدَّها واحدًا من أدلَّة إمامته عليه السلام في ضوء تعداد معجزاته، في ضوء ما نقله شقيق البلخيّ عندما خرج حاجًّا ذات مرَّة، إذ نظر إلى الإمام الكاظم عليه السلام وهو يرتدي فوق ثيابه صوف مشتمل بشملة، في رجليه نعلان، وقد جلس منفردًا، وذكر شقيق في نفسه أنَّ

(١) ينظر: الكافي: ١/ ٣٠٦.
(٢) ينظر: الكشَّاف: ٣/ ٣٩٢.

هـذا الفتى مـن الصوفيَّة يريد أنْ يكـون كَلًّا على النَّاس، وعزم عـلى توبيخ الإمام عليه السلام، لكـنَّ الإمام عندمـا رآه مقبلًا قال له يا شـقيق: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات/ مـن الآيـة: ١٢]، وتركه الإمام ومضى، وذكر شـقيق أنَّ الإمام تكلَّم بما في نفسـه، وندم ولحقه؛ ليحلِّلـه، فلمَّا رآه الإمام مقبلًا، قال له يا شـقيق اتلُ قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طـه: ٨٢]، وذكـر شـقيق أنَّ هـذا لَـمِـن الأبدال، إذ تكلَّم في سرِّي مرَّتَين[1]. ولا عجب في تكشـيف هاته المعجزات على يـد هـؤلاء الأئمَّة الذين أذهـب الله عنهم الرجس وطهَّرهـم تطهيرًا، فلـو أمعنَّا النظر في سـيرهم عليهم السلام، وجدنـا أنَّ الإسـلام لا ينقرض ولا ينقضي بوجـود حَفَظة له يحفظونه مـن بين أيديهم ومـن خلفهم، ليلًا ونهـارًا، ولا يألون جهدًا في تطبيقـه، وتعليم الناس له.

٢. الوعد والوعيد:

أ. المعاد الجسمانيّ:

تتلـوَّن الأدلَّة التي ذكرها فخـر المحقِّقين على المَعاد أنَّه ممكن، واسـتشرف في قوله تعـالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طـه: ١٥]، أنَّ الله تعـالى قادر على كلِّ مقدور، زيـادة على أنَّ جَمْع أجزاء بدن الإنسـان الميت، وتأليفه مثل مـا كان، وإعـادة روحه إليه يسـمَّى حشر الأجسـاد، وهو ممكن؛ والله سـبحانه وتعالى قـادرٌ عـلى كلِّ الممكنات وعالِـمٌ بـكل المعلومات، وإذا كان ذلـك، وإذا ثبتت قدرة الله تعـالى على ذلك، فالداعي أيضًا موجـود؛ لأنَّ الدنيا لو كانـت دار الجزاء؛ لزم الإلجاء، فـلا بُـدَّ من دار أخرى يُثـابُ فيها المُطيـع، ويُعاقَبُ فيها العـاصي؛ لأنَّ وصول الثواب

(١) ينظر: تحصيل النجاة في أصول الدين: ١٣٦.

والعقاب من الألطاف، فيجب؛ ولأنَّه تعالى وَعَدَ بالثواب وجعَلَه مستَحَقًّا على الأفعال الواجبة، ولا صارف عن ذلك، فوجب وقوعه، ويبرق أيضًا أنَّ الله تعالى خَلَق العالم لنفعهم، وليس ثابتًا هنا؛ لأنَّ ما يُتَوهَّم أنَّه لذَّة فهو في الحقيقة مفارقةُ ألمٍ، فلا بدَّ من دارٍ أخرى[1]. ويتَّضحُ أنَّ المعاد بَعْثُ الإنسان إلى حياة أخرى؛ ليُلاقي جزاءه على ما عمله، إمَّا ثوابًا أو عقابًا، زيادة على أنَّ الإنسان ليس هيكلًا جسمانيًّا فحسب، بل هو روحٌ أيضًا.

ب. إمكان خَلْق عالَم آخر:

تنبَّه فخر المحقِّقين إلى أنَّه يمكن خَلْق عالَم آخر، واستند إلى قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]، قال: «يمكن خَلْق عالَم آخر، لأنَّ الله قادرٌ على كلِّ مقدور وهو مكن؛ لأنَّ المثلين يتساويان في الإمكان وعدمه»[2]. وفطن الطاهر بن عاشور إلى أنَّه لمَّا تبيَّن الاستدلال بخَلْقِ أشياء على إمكان خَلْقِ أمثالها، ارتقى في هاته الآية المباركة المذكورة آنفًا إلى الاستدلال بخَلْقِ مخلوقاتٍ عظيمةٍ على إمكان خَلْق ما دونها، وزيادة على ذلك أنَّ الدليل انطوى على التقرير الذي دلَّ عليه الاستفهام التقريريّ؛ لأنَّ هذا الدليل لوضوحه لا يسع المُقِرُّ إلَّا الإقرار به، فإنَّ البديهة قاضيةٌ بأنَّ مَنْ خَلَقَ السماواتِ والأرضَ هو على خَلْقِ ناسٍ بعد الموت أقدر[3].

ج. الخلود في النار:

كشف فخر المحقِّقين أنَّ قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾

(١) ينظر: تحصيل النجاة في أصول الدين: ١٩١، ومحاضرات في الإلهيَّات: ٤١٥-٤١٦.
(٢) تحصيل النجاة في أصول الدين: ١٩٣.
(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٣/ ٧٨.

[ص: ٦٢] ذو حمولةٍ دلاليَّةٍ على أنَّ المراد بالخلود في النار الزمن المتطاوَل، وزيادة على ذلك أنّ الخطاب الوارد في الآية المباركة المذكورة آنفًا إنَّما يكون بخروج قوم منها[١]، فإنَّهم لا يجدونهم في جهنَّم، وقد عُرِفَ أنَّهم هنالك في الجنان، فهذا هو جواب ذلك الاستعجال والاستهزاء[٢].

(١) ينظر: تحصيل النجاة في أصول الدين: ١٩٦.

(٢) ينظر: في ظلال القرآن: ٥/ ٣٠٠٥.

المبحث الثالث

أنساق الاستدلال بمجموعة من الآيات

سنتحدَّث في هاته المباحثة عن استدلال فخر المحقِّقين بمجموعة من الآيات القرآنيَّة، كما يأتي:

١. الإمامة/ عصمة الإمام:

لا يخفى أنَّ الإمام يجب أنْ يكون معصومًا، وذكر فخر المحقِّقين أنَّ المُخْلَصَ من العباد معصومٌ بدليل قوله تعالى: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣]، قال: «والاستثناء والمستثنى منه متناقضان، والأولى مطلقة عامَّة، فتكون الثانية سالبة دائمة، فتنتفي الغواية عن المخلصين دائمًا، ولا نعني بالمعصوم إلَّا ذلك. فإمَّا أنْ يكون هؤلاء غير الأنبياء والأئمَّة، وهو محال إجماعًا، أو يكون هم الأنبياء والأئمَّة عليهم السلام، أو الأنبياء خاصَّة. والأوَّل هو المطلوب، والثاني لم يقُل به أحد؛ لأنَّ كلَّ منْ قال بعصمة النبيّ قال بعصمة الإمام»[١]. ونستكشِفُ أنَّ إبليس أقسم بسلطان الله سبحانه وتعالى وبقدرته لَيُضلَّنَّ بني آدم أجمعين، واستثنى منهم الذين أخلصهم الله تعالى لعبادته، وعصمهم عن إضلاله، فلم يجعل الله تعالى للشيطان عليهم سبيلًا، فهو لا يقدر على إضلالهم وغوايتهم[٢].

(١) تحصيل النجاة في أصول الدين: ٩٧.

(٢) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٢٠/ ١٤٧.

ونبصُر أنَّ فخر المحقِّقين ذكر استدلالًا منطقيًّا على عصمة الإمام، تدرَّج به من القضيَّة الصُّغرى إلى القضيَّة الكبرى، وهو استدلال شائقٌ رائقٌ ينطوي على معرفة وثقافة واطِّلاع وسيع على المصادر العقديَّة والأصوليَّة والمنطقيَّة.

٢. إمامة عليّ بن أبي طالبٍ عليه السلام:

استدلَّ فخر المحقِّقين على إمامة الإمام عليّ عليه السلام في ظلِّ قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ١-٤]، وجعله واحدًا من الأدلَّة التي ذكرها على إمامته عليه السلام، وزيادة على ذلك أنَّ جماعة من بني هاشم كانوا جالسين مع النبيِّ الأكرم صلى الله عليه وآله إذ انقضَّ كوكبٌ، وذكر النبيُّ أنَّ مَن انقضَّ هذا النجم في منزله، فهو الوصيّ من بعده، وانقضَّ في بيت الإمام عليّ عليه السلام، واستنكر جماعة من بني هاشم على النبيِّ صنيعه، وأظهروا للرسول أنَّه غوى في حبِّ الإمام عليّ عليه السلام، فأنزل الله سبحانه وتعالى هاته الآيات المباركات المذكورات آنفًا؛ تصديقًا لإخبار النبيِّ بخلافة عليّ عليه السلام وإمامته[١].

وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وآله أن تُوصَد جميع الأبواب المشرفة على المسجد من بيوت الصحابة، سوى باب الإمام عليّ عليه السلام، فكان هذا الأمر عزيزًا على المسلمين، حتَّى إنَّ حمزة عمُّ النبيّ عتب عليه عندما غلق بابه وباب أبي بكر وعمر والعبَّاس، وترك باب عليّ عليه السلام مفتوحًا، وفضلَّهُ على الآخرين، فلمَّا عَلِم النبيّ أنَّ هذا الأمر صعب عليهم، دعا الناس إلى المسجد، وخطب خطبة عصماء، وحَمِدَ الله وأثنى عليه، ثمَّ بيَّن لهم أنَّ ليس هو مَنْ سدَّها، ولا هو من فتحها، ثمَّ قرأ الآيات المباركات في سورة النجم[٢].

(١) ينظر: تحصيل النجاة في أصول الدين: ١٠٣-١٠٤.
(٢) ينظر: الأمثل في تفسير كتاب الله المُنزل: ١٧/ ٢١٠.

٣. إمامة الإمام المهدي عليه السلام:

لا يخفى أنَّ الإمام بعد الحسن العسكريّ عليه السلام ولده الخلف الصَّالح القائم المُنتظَر المَهدي عليه السلام، واستضاء الشيخ فخر المحقِّقين بقوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٥-٦]، إذ جعل هذا المقطع واحدًا من أدلَّته على إمامة الإمام المهدي عليه السلام، زِدْ على أنَّه ذكر عددًا من المُقدِّمات، منها إنَّ الإمام الذي ينصِّبه الله تعالى موصوفًا بأنَّه استُضعِف في الارض، وأنَّه لا إمامَ بعده؛ لأنَّه وارث لا موروث؛ لأنَّ الخبر إذا دخل عليه الألف واللام دلَّ على حصره على المبتدأ، فلا يشاركه غيره فيه، ولو كان بعده إمام، لكان غيره وارثًا وهو باطلٌ. ومراد الآيات المباركات المذكورات آنفًا إمَّا أنْ يكون إشارة إلى النبيّ، إذ الإمام يُطلَق على النبيّ أيضًا، أو إلى مَنْ قبله، أو إلى مَنْ بعده، والأوَّل مُحال، وإلَّا لزم تحصيل الحاصل، وإرادة القادر إنَّما تتعلَّق بالحادث قبل حدوثه لا بعده، والثاني محال؛ لأنَّه إخبار عمَّا يتعلَّق بالمستقبل لا بالماضي، يبقى أنْ يكون بعده فقط؛ وغير محمَّد ابن الحسن المهدي عليه السلام ممَّن ادُّعِيَ فيه الخلافة موروث؛ لثبوت إمام بعده، لاستحالة خلوِّ الزمان من إمام، وبعضهم لم يمكِّن لهم في الارض؛ لأنَّ المراد جميع الأرض، بدليل أنَّ لام الجنس إذا دخل على اسم الجنس أفاد العموم[1].

٢. المعاد:

أ. المعاد الجسمانيّ:

يتجلَّى استدلال فخر المحقِّقين على المَعاد الجسمانيّ في ضوء قوله تعالى: ﴿قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾

(١) ينظر: تحصيل النجاة في أصول الدِّين: ١٧١.

[يس: ٧٨-٧٩]، إذ الواو للحال، فضلًا عن أنَّ العالَمَ ممكن والمؤثِّر فيه قادرٌ، وأثر القادر لا يجب دوامه، زِدْ على أنَّ خراب العالَمِ بتفريق أجزاه، فإذا كان يوم القيامة ألَّفها كما كانت، ويدلُّ على ذلك المقطع القرآنيّ المبارك المُشار إليه آنفًا[1]، وزاد فخر المحقِّقين في استدلاله، فذكر أنَّ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾ [الفجر: ٢٧- ٢٩] فيه دلالة شائقةٌ على المعاد الجسمانيّ، قال: «قال مثبتو النفس من المتكلِّمين: العقل دلَّ على سعادة الأرواح في المعرفة وسعادة الأجساد في المحسوسات، فإذا أعدم البدن، بأنْ فرَّق أجزاءه، والنفسُ باقٍ، أبطل تعلُّقها، فالإعادة تكون بإعادتها معًا، بأنْ يجمع أجزاء البدن ويخلق فيها الحياة والقوى والإدراكات، ويجعل النَّفس متعلِّقة به؛ لتحصل اللَّذَّتان العقليَّة والحسيَّة والكمالات؛ ليُجزَى الإنسان»[2].

ويبرز في ظلِّ ما تقدَّم أنَّ تخابط أجزاء بدن الإنسان وتداخلها بعد الموت، لهوَ أيسر على الله سبحانه وتعالى من خَلْقها؛ إذ هو منشؤها ومبتدعها، ولا سيَّما إذا لحظنا المقطع الأمريّ المتلاحق والمتتابع والمتوالي المُؤدَّى بالأفعال الأمريَّة (ارجعي، ادخلي)، إذ فيهما إنجازيَّة وتأثيريَّة مباشرة على المخاطب، زِدْ على أنَّها ظاهرة في الوجوب.

ب. عقاب الفاسق:

جعل الشيخ فخر المحقِّقين قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨] دليلًا على أنَّ عقاب الفاسق مُنقطع، قال: «الفاسق يستحقُّ بإيمانه الثواب الدائم، فيجب إيصاله إليه، ويستحقُّ بالمعصية العقاب، فإنْ لم يحصل العفو وصل إليه، فإنْ دام العقاب اجتمع المتنافيان،

(١) ينظر: تحصيل النجاة في أصول الدِّين: ١٩١.
(٢) المصدر نفسه: ١٩١.

والإحباط والتكفير باطلان، ولا يدوم العقاب للفاسق، فإمَّا أنْ يتقدَّم الثواب، وهو باطلٌ، لأنَّه يكون مشوبًا بالكَدَرِ، وهو باطل، أو العقابُ، وهو المطلوب»[1].

ج. حقيقة الإيمان:

شاطَر الشيخ فخر المحقِّقين والده في المراد من حقيقة الإيمان، وهو عند والده تصديق النبيّ صلى الله عليه وآله في جميع ما جاء به، زيادةً على إمامة الأئمَّة الاثني عشر، والإقرار باللسان أو حكمه (كالمكرَه والساكت)، ولم يشترط العمل بالأركان؛ لأنَّ الإيمان لغة التصديق، وليس إشارة إلى المعرفة القلبيَّة، ولا للتصديق اللسانيّ، وذكر أنَّ هذا هو الحقُّ عنده[2]، واستند في رأيه إلى قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٤]، قال: «وأمَّا العمل بالأركان فليس بشرط، فلو كان ذلك جزءًا من الإيمان، لكان ذلك إمَّا للتأكيد، فيكون العمل أعظم من التصديق، وليس لأنَّ التصديق شرط العمل دون العكس؛ وإمَّا للتكرار، وهو محال، فصاحب الكبيرة مؤمن»[3]. وتتجلَّى حقيقة الإيمان عند فخر المحقِّقين في ظلِّ ما تقدَّم توحيد الله سبحانه في ألوهيَّته وأسمائه وصفاته، والإيمان بالملائكة والكتب والرُّسل واليوم الآخر وإمامة الأئمَّة الاثني عشر.

(١) تحصيل النجاة في أصول الدِّين: ١٩٦.
(٢) ينظر: المصدر نفسه: ١٩٩.
(٣) المصدر نفسه: ١٩٩-٢٠٠.

الخاتمة

بعد هاته الرحلة التحليليَّة في كتاب تحصيل النَّجاة في أصول الدِّين لفخر المحقِّقين، اسْتَبْيَنَ لنا جملة من النتائج منها:

أوَّلًا: تبدَّى لنا في ضوء الوقوف على أنساق الاستدلال بالقرآن الكريم، أنَّ الشيخ فخر المُحققين يضع القرآن الكريم في استدلالاته المُهمَّة على أصول الدِّين.

ثانيًا: تبيَّن لنا أنَّ عدد الآيات المباركات التي استدلَّ بها الشيخ فخر المحقِّقين على أصول الدِّين (ثلاثون) آيةً، ويتجلَّى أنَّ الاستدلال بجزء من الآية القرنية الأعلى ورودًا؛ إذ بلغ (ستَّة عشر) موضعًا، وكان الاستدلال بآية كاملة (ثمانية) مواضع، فيما كان الاستدلال بمقطع قرآنيّ (ستَّة) مواضع.

ثالثًا: أظهر البحث أنَّ الاستدلال القرآنيّ على أصل(المعاد، الوعد، الوعيد) كان الأكثر ورودًا عند الشيخ فخر المحقِّقين إذ استدلَّ على ذلك بـ(ستَّة عشر) موضعًا، وجاء بعده الإمامة بـ(تسعة) مواضع، والتوحيد (موضِعَين)، والعدل بـ(موضع واحد)، والنبوَّة (موضع واحد).

رابعًا: اعتمد الشيخ فخر المحقِّقين الدليل العقليّ في استدلالاته على أصول الدِّين؛ لأنَّ الموضوع الذي تناوله في كتابه عقليّ (أصول الدِّين)، وعضَّد ذلك بالاستدلال القرآنيّ؛ تقويةً وتأييدًا لاستدلاله العقليّ.

خامسًا: تدَّرج الشيخ في استدلالاته منطقيًّا من الجزء إلى الكلِّ، ومن الصغرى إلى الكبرى، زيادةً على اعتماده الأدلَّة المنطقيَّة والفلسفيَّة.

سادسًا: تميَّز أسلوب الاستدلال عند فخر المحقِّقين بالسهولة واليُسر، بعيدًا عن التعقيد؛ إذ بإمكان أيِّ فرد الإفادة من كتابه وفهمه، والوصول إلى مقاصده دونما تعقيد.

مصادر البحث ومراجعه

* القرآن الكريم.

١. الأمثل في تفسير كتاب الله المُنزل: ناصر مكارم الشيرازي، قم، مؤسَّسة النشر الإسلاميّ.

٢. البرهان في تفسير القرآن، السيِّد هاشم البحرانيّ (ت ١١٠٧هـ)، تحقيق: قسم الدراسات الاسلاميَّة، مؤسسة البعثة، قم.

٣. التحرير والتنوير: محمَّد الطاهر بن محمَّد بن محمَّد الطاهر بن عاشور التونسيّ (ت ١٣٩٣هـ)، الدار التونسيَّة، تونس، ١٩٨٤م.

٤. تحصيل النجاة في أصول الدين: الشيخ محمَّد بن الحسن بن يوسف ابن المُطهَّر الحِلِّيّ (ت ٧٧١هـ)، تحقيق: حامد فيَّاضي، دار الكفيل، ط١، العراق، ٢٠١٧م.

٥. التعريفات: عليّ بن محمَّد بن عليّ الزَّين الشريف الجرجانيّ (ت ٨١٦هـ)، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٦. تنقيح المقال في علم الرجال: الشيخ عبد الله المامقانيّ (ت ١٣٥١هـ)، تحقيق: محي الدين المامقانيّ، مؤسَّسة آل البيت عليهم السلام، قم، ط١، ١٤٣٤هـ.

٧. جامع البيان في تأويل القرآن: محمَّد بن جرير بن يزيد، أبو جعفر الطبريّ (ت ٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمَّد شاكر، مؤسَّسة الرسالة، ط١، ٢٠٠٠م.

٨. الذريعة إلى تصانيف الشيعة: آقا بُزُرْكَ الطهرانيّ (ت ١٣٨٩هـ)، مؤسَّسة إسماعليان، قم، ١٤٠٨هـ.

٩. روضات الجنَّات في أحوال العلماء والسادات: محمَّد باقر الموسويّ الخونساريّ (ت ١٣١٣هـ)، الدار الإسلاميَّة، بيروت، ١٤١٤هـ.

١٠. ريحانة الأدب: ميرزا محمَّد عليّ مدرِّس (ت ١٣٧٣هـ)، انتشارات خيام، بيروت، ط٤، ١٣٧٤ ش.

١١. عقائد الإماميَّة: محمَّد رضا المظفَّر (ت ١٣٣٧هـ)، مكتبة كرَّار السَّعديّ، العراق، ٢٠٠٩م.

١٢. العقائد والمعارف: محمَّد تقيّ سبحاني، مؤسَّسة معارف أهل البيت عليهم السلام، قم، ١٣٩٧ش.

١٣. عقيدتنا، النبوَّة، والإمامة، والعصمة: مالك وهبي العامليّ، دار الولاء، بيروت، ط١، ٢٠١٧م.

١٤. عليّ دواني فخر الدين محمَّد (ت ٢٠٠٧ م)، مجلَّة در سهايي، مكتب إسلام، السنة الرابعة، رقم ١٠، إيران، ١٣٤١ش.

١٥. العين: الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيديّ البصريّ (ت ١٧٠هـ)، تحقيق: د. مهدي المخزوميّ، ود. إبراهيم السامرَّائيّ، دار ومكتبة الهلال.

١٦. الفوائد الرضويَّة في أحوال علماء مذهب الجعفريَّة: الشيخ عبَّاس القُمِّيّ (ت ١٣٥٩هـ)، تحقيق: ناصر باقر بيدهندي، مؤسَّسة بوستان كتاب، قم، ١٣٨٥هـ.

١٧. في ظلال القرآن: سيِّد قطب إبراهيم حسين الشاربيّ (ت ١٣٨٥هـ)، دار الشروق، ط١٧، بيروت، ١٤١٢هـ.

١٨. الكافي: محمَّد بن يعقوب الكُلينيّ (ت ٣٢٩هـ)، تحقيق: عليّ أكبر غفَّاريّ، دار الكتب الإسلاميَّة، طهران، ١٤٠٧هـ.

١٩. كتاب الألفين: الحسن بن يوسف بن المُطَهَّر العلَّامة الحِلِّيّ (ت ٧٢٦هـ)، المؤسَّسة الإسلاميَّة، قم، ١٤٢٣هـ.

٢٠. الكشَّاف عن حقائق غوامض التنزيل: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشريّ جار الله (ت ٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربيّ، ط٣، بيروت، ١٤٠٧هـ.

٢١. الكليَّات: أيُّوب بن موسى الحسينيّ الكفويّ (ت ١٠٩٤هـ)، تحقيق: عدنان درويش، مؤسَّسة الرسالة، بيروت.

٢٢. لوامع صاحب قرآنيّ: محمَّد تقي المجلسيّ (ت ١٠٧٠هـ)، مؤسَّسة إسماعيليان، قم، ١٤١٤هـ.

٢٣. مجمع البيان في تفسير القرآن: أبو عليّ الفضل بن الحسن الطبرسيّ، تقديم: محسن الأمين العامليّ، مؤسَّسة الأعلميّ، قم، ط١، ١٩٩٥م.

٢٤. محاضرات في الإلهيَّات: جعفر بن محمَّد حسين السَّبحانيّ التبريزيّ، مؤسَّسة الإمام الصادق عليه السلام، ط٧، ١٤٢٥هـ.

٢٥. مفاتيح الغيب: محمَّد بن عمر بن الحسن، فخر الدِّين الرازي (ت ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.

٢٦. مفردات ألفاظ القرآن: أبو القاسم الحسين بن محمَّد الراغب الأصفهانيّ (ت ٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤١٢هـ.

٢٧. مقاييس اللغة: أحمد بن فارس بن زكريَّاء القزوينيّ الرازي (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمَّد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٢٨. مناهل العرفان في علوم القرآن: محمَّد عبد العظيم الزرقانيّ (ت ١٣٦٧هـ)، تحقيق: فوَّاز أحمد الزمرليّ، دار الكتب العلميَّة، ط١، بيروت، ١٩٩٥م.